ميشيل

مسرحية من ثلاثة فصول

للكاتب والممثل الإنجليزي

مايلز ماليسون

(١٩٥٨)

عن رائعة ديستوفيسكي

"بماذا يكون الإنسان إنسانا"

الشخوص

سيمون

ماتريونا

أنوكشا

ميشيل

نبيل روسي

خادم النبيل

امرأة

طفلتان

الفصل الأول

كوخٌ شديد الفقر يتوسطه باب يؤدي إلى حجرةٍ المسرح، قصعةٌ حطبٍ في الجهة المقابلة، بجوارها مقعد خشبي متهالك. الغرفة فقيرة الأثاث: طاولة خشبية "ونملية" وبعض مقاعد متهالكة وغير متماثلة، على الطاوله قطعةُ قماش وأدوات خياطة. مساءٌ عاصف الريح.

مع ارتفاع الستائر يبدو المسرح فارغاً ثم تدخل امرأةٌ نحيلةٌ من الباب الخارجي وهي تحمل جرة ماء. تتحرك متجهة إلى الحجرة الداخلية. من الواضح أنها وجدت الحجرةَ فارغةً. تنادي:

: أنوكشا.. أنوكشا (صوت طفلة تجيب من الخارج بصوت مبتهج.. أوو وي أوو وي. تتجه المرأة للخارج وتناديها مرة أخرى)

: أين الأخشاب التي جمعتِها يا أنوكشا؟ هاتها وضعيها هنا في القصعة.. الآن.. حالا.

تتجه المرأة إلى الطاولة وتنشغل هناك ببعض الخياطة بينما تظهر أغصان كثيرة عند الباب. الأغصان تتجه مباشرة نحو القصعة بتعثروتخبط، تبدو الأغصان متحركة على قدمين نحيلتين.. تظهر الطفلة شيئا فشيئا بعد أن تتناول ماتريونا الأغصان ثم تضعها في القصعة.

: والآن حاولي اشعال الناريا أنوكشا.. سيعود أبوك من المدينة بعد قليل.

تجلس الفتاةُ القرفصاء وتبدأ في تكسير الأخشاب، يبدو كسرُ الأغصان الرفيعة سهلًا جدًا بينما تعاني مع الأغصان الأشد سمكًا. تنشغل الفتاة تماما عن مشاهدة الأم ثم تقول وهي تنفخ.

أنوكشا: هوف هوف.. أمي.. هوف.

ماتريونا : ماذا تريدين؟

أنوكشا: هوف.. هوف.. لماذا ذهب أبي إلى المدينة اليوم؟

ماتريونا: ليشتري معطفا من جلد الغنم.. لا نملك إلا واحدا فقط لكلينا.. تبادلناه حتى هَلَك.

أنوكشا: هوف.. ولماذا لم يذهبْ أبي لشراء معطفٍ قبل ذلك أبدا.. هوف.. إنها المرة الأولى التي يغيب فيها أبي يومًا كاملًا.

ماتريونا: لم يجد الوقت لذلك أبدًا، هو دائما مشغول بالأحذية.

أنوكشا: هوف.

ماتريونا: العمل شحيح.. لكن الخبز غالٍ؛ كل ما يتحصل المسكين عليه يُنفق على الطعام؛ لم يستطع أبدا توفير نفقة السفر وشراء معطف. لا يمكن قطع كل هذه الأميال سيرًا إلى المدينة دون بعض مال يتبلغ به طعاما في الطريق.

أنوكشا (تتوقف عن النفخ مشفقة): وهل يمتلك أبي الآن مالا كافيا؟

ماتريونا: معه نعم، أما كافيًا فلا؛ لقد اقتضاه توفير ثمن المعطف عامًا كاملًا من العمل اليومي في خصف النعال وصنعها. لقد ذهب صباح اليوم لجمع أثمان هذه النعال في طريق لسفره إلى المدينة.

أنوكشا: ممن سيجمع هذه الأموال؟

ماتريونا: من الجيران أصحاب هذه النعال أيتها الحمقاء،

(أعرض وجهُ الأم قليلا عن الفتاة وبدأت تتحدث إلى نفسها)

معطفٌ كهذا سيكفينا إلى أن يدفئنا القبر.. لو فقط لم يخدعه البائع.. لو نجح في شرائه بهذا المبلغ! ليست ثمانية روبلات بالمبلغ البسيط؛ لكنه هو الشخص البسيط، هو المسكين الذي لا يخدع أحدا، لكن طفلا صغيرا يستطيع أن يلهو برأسه.. ثمانية روبلات.. ليس شرطًا أن يكون معطفًا مدبوغا ولكن مناسبًا لشتاء قارس كهذا، أي دثار يجعل الريحَ أرقَ صفعًا لضلوعنا.. لقد ذهب بالمعطف الوحيد لدينا؛ لذلك كان عليّ أن أبقى حبيسة المنزل طوال اليوم، لولا حاجتنا للماء لما خرجت.

بعد صراع طويل في نفخ الأخشاب تبدأ أنوكشا في الاستسلام.

: هذا شئ مقرف جدًا.. اللعنةُ على هذه النار.. لا أستطيع "الهوف" أكثر.

تتجه ماتريونا نحو القصعة باسمة وبيدها قطعة الملابس وهي تقول:

إذن لا "تَهُفي"، دعك من النفخ الآن وانظري كم من الخبز لدينا؟ سيكون جائعًا جدًا حين يعود.

تذهب الطفلة إلى "النملية" وتعود ممسكة بقطعة يابسة من الخبز.

تستأنف الأم

: هذا لا بأس به، فلابد أنه سيتناول عشاءً خفيفا في المدينة قبل أن يعود. بللي الخبز بقطرات من الماء ليلين ريثما يعود.

تتجه الابنة راقصة بالخبز اليابس بين الطاولة والنملية وهي تردد أغنية وترقص:

"معطفُ معطفُ الخروف.. يُصنعُ منه رداءٌ صوف

ليتك حين تعودَ أبي.. ترجعُ أيضا بالخروف"

يخفُتُ صوت الابنة حين تنشغل بالجفنة التي تحتوي الماء بينما تعود الأم للحديث إلى نفسها

"سيعود الآن، لابد أن المسكين قضى وقتا طويلا في جمع الروبلات صباحًا قبل أن يشرع إلى المدينة.. لابد أنه جاعَ فأكل، حسنا؛ ليست هذه جريمة، كل ما أخشاه أن يكون قد أنفق في اللهو شيئا."

بللت أنوكشا الخبزَ بالماء واستكملت رقصها متجهة نحو الباب ثم توقفت

أنوكشا: ها قد عاد أبي، ها قد عاد.

ببهجة خالصة اتجهت إلى أمها ثم عادت نحو الباب لتلقى أباها حين يدخل. تتوقف فجاة وتختفي ابتسامتها.

: ليس أبي بمفرده.. هناك رجلٌ بصحبته.

: ماذا تقولين.. من هذا الذي معه؟! (تضع قطعة القماش جانبًا)

أنوكشا: لا أعرف، لابد أنه شخص مرتجف ضائع.. إن ذراعيه عاريان وقدميه حافيتان ويَسير كالحصان.. يبدو شحاذًا.

ماتريونا: شحاذ؟!

أنوكشا: لا، إنه لا يبدو شحاذا، إنه...

ماتريونا: هل مع أبيك معطف؟

أنوكشا: لا.

ماتريونـا: لا معطـفَ معـه!! (تنـدفع نحـو البـاب) لا معطـف!! وجلـب شحاذًا معه!! هذا ما كنت أخشاه.. الماجن العابث، إنها الفودكا.. ضيع المال عليها ولا أمل في معطف.. هذه نهاية رائعة لعام من الشقاء والجوع، قلبي سينفجر.. السكيرُ النَزِق.. اذهبي إلى النوم أيتها البائسة.

أنوكشا (شبه محتجة): أريد أن أرى أبي.

ماتريونا: اغربي عن وجهي؛ ليس من الخير أن تري هذا السكير.. ليس من الخير أن ترَي ما سأفعل به.

أنوكشا وقد أرجف الدمعُ صوتَها

: لم أرَ أبي طوالَ اليوم.

ماتريونا: أغربي عن وجهي،

تنسحب أنوكشا محاولة أن توقف دمعها، تزم شفتيها حانقة وتمضي إلى الحجرة. تغلق ماتريونا الحجرة خلفها ثم تغلق باب الكوخ وتتمتم

: يا ربَ السموات.. عامًا كاملًا من العبودية والذل.. ثم يضيع كل شئ على الفودكا.. وها هو يعود كأنها مزحة.. حسنا جدا.. سوف نرى.

تتجه نحو قصعة النار الملتهبة وتنتظر.

يفتح سيمون الباب ويدخل مرحبًا بضيفه

سيمون: تفضل تفضل صديقي تفضل.

يدخل فتى وادعٌ جميلُ المحيا، دون العشرين بقليل، نصف بدنه عار، وسيم التكوين رغم رثاثة مظهره إجمالا، ذراعاه العاريان شديدا اللمعة، يبدو جرحٌ خشنٌ حولهما. قطعةُ قماشٍ عشوائية تستر نصفه الأسفل وعلى الكتفين استقرت شَملةُ سيمون. يقف في منتصف الحجرة مخفضًا رأسه وعينيه. لا يبدو على سيمون أي أثر للخمر.. لكنه قلقٌ جدًا من لقاء زوجته.

: حبيبتي، رقيقتي، أمي.. وحشتيني.. تعالَ أيها الرفيق، اجلس هناك صوب المدفأة، اقتربْ واستدفئ (يسحب كرسيا صغيرا بجوار المدفأة ويشير للغريب أن يجلس) هنا، هذا أفضل من التجمد بالخارج، هلا جهزتِ لنا شيئا لنأكله يا أمي.. أي شئ.

ماتريونا: عشاء!! يا جمالك!!.. لن تذوقَ شيئا قبل أن أرى معطفي.

سيمون: أوه.. أيتها الزوجة الطيبة.. ياله من استقبال فاتر.. (يُخفض صوته) لم أشترِ المعطف.

ماتريونا: ولم لا؟

سيمون: مررت على جارنا تريفونوف في طريقي إلى المدينة لكنه لم يسد لي دينه، ليس لديه مالٌ، بالكاد بعض الخبز لزوجه وولده؛ لم يكن ممكنا أن أرغمه وهو على هذه الحال.. ذهبت لبائع المعاطف راجيًا، توسلت إليه أن يمنحني واحدًا ويمهلني السداد لكنه رفض.. وهكذا عدت بدون معطف.

ماتريونا: وأين المال الذي كان بحوزتك ابتداءً؟

سيمون: هذا هو (يعطيها ما لديه)

ماتريونا: ليس هذا كل ما كان معك.

سيمون: أنفقت بعضه.

ماتريونا: فيم؟

سيمون (بصوت خفيض): شربت فودكا، ثم كان لابد أن أُطعم هذا المسكين.

ماتريونا: أيها الوغد.

سيمون: قدرٌ قليلٌ للتدفئة يا أمي ، كل هذه الأميال في هذا الجليد.. كدت أتجمد.. وأكاد الآن أموت جوعًا أيضا.

ماتريونا: لا طعامَ لسكيرٍ مثلِك هنا.

سيمون: ماتريونا، لماذا تَجدِين عليّ وقد فعلت ما بوسعي؟ أنت مثل هذا البرد، بلا رحمة.

ماتريونا: البرد!! أليس من أجل هذا البرد خرجت صباحًا؟ أليس من أجل هذا البرد نجوع منذ عام! وهأنت تعود بيدٍ خاوية إلا من مشردٍ قذرٍ عارٍ.

سيمون: حسبك، توقفي هنا ماتريونا.. فلتلجمي لسانَك السليطَ هاهنا.

ماتريونا: وتسأل عن طعامٍ أيها البارد؟ أتعرف أني لم آكل ولم تأكل طفلتك غير كسرات خبز لنجد بعض الخبز غدا؟ علام دعوت سكارى المدينة؟ ليشاركونا الجفاف وخواء البطون.. ماذا تريد أن تطعمَ هذا الأخرق؟

سيمون: ماتريونا.. أصمتي.

ماتريونا: أصمت؟! لم أنتهِ منك بعد، أتتوقع مني أن أذل نفسي عاما آخر حتى تجد عشاءك وتشرب كأسا آخر.. هات هذه العباءة التي وضعتها على متشردك.

سيمون: افعلي بي ما شئت يا ماتريونا، لكن دعي الفتى)

(تدفعه، تتجه نحو الغريب وتسحب من فوقه الشملة فيصبح نصف عارٍ، تغطي بها كتفيها وتتوجه نحو الباب، لكن بعد خطوتين تقف. لم يتحرك الغريب ولا سيمون. تعود متطلعة وتوجه كلامها للغريب)

: لو لم تكن سفيهًا حقيرًا لما وصلت إلى هذا العري، ما الذي أوصلك إلى هذا البؤس إن لم تكن أحمق.. مالك؟ أأنت خائف؟ يالك من قذر رقيق الجلد شفيف اليدين.. من أين أتيت وما حقيقتك أيها المخنث؟ تكلم.. ألا يحتوي رأسك الأجوف هذا لسانا؟

(يهز الغريب رأسه وما زالت منخفضة)

سيمون: لم ينطقْ بكلمةٍ واحدة منذ وجدته.

ماتريونا: وجدته؟! أين؟

سيمون: على قارعة الطريق، كنت أمر بضريح مقدس في منحنى الطريق، وجدت شيئا منطرحا على الأرض، اقتربت فرأيته.. عاريا في هذا الجليد، لابد أن لصًا جرده من كل ما يملك، هكذا ظننت، أيقنت أنني أعرض نفسي للخطر؛ قلت وأنا ما لي، سيهلكه البرد بعد قليلٍ ويرتاح، تجاوزته غير مكترث ثم وقفت.. تفكرت قليلا "سيمون"، قلت لنفسي "هل أصبحت غنيا إلى الحد الذي تخشى فيه اللصوص؟ ياللعار" هذا مخلوقٌ يموت أمامك ولا تفكر سوى بخوفك؛ وجدتني أعود إليه.. ساعدته على النهوض، نثرت فوقه شملتي وأحضرته إلى بيتنا.. سألته أسئلة كثيرة لكنه لم ينطق.. تماما كما ترينه الآن.. لعله أبكم، والآن.. هأنت تعرفين ما أعرف تماما.. لاشئ غير هذا.

(تنظر إليه ماتريونا ويزداد تعجبها)

ماتريونا: إن بشرته رقيقة ناعمة كما يليق برجل نبيل، في طقس قارس كهذا من العجيب أنه مازال حيًا (تعيد الشملة فوق كتفيه ويرِقُ صوتُها) حسنا، لا يجدر بنا أن نتركه يموت جوعا، أفسح ليَ الطريق (رق صوتها تماما، اتجهت مسرعة نحو النار باحثة عن قدر تضعه فوق النار)

- هاكم.. اجلس هنا.. هذا الكرسي أدفأ مكانا (وجَدَت القدروأجلسته، أصبح ظهر الغريب الآن للمشاهدين، ملأت كوبا وناولته إياه) خذ، اشرب هذا، سيدفئك قليلا.

(رفع رأسه إليها وهو يتناول الكوب، جفلت عائدة فجأة، نظرت إليه كما لو كانت دائخة، لا هي قادرة على مجابهة عينيه ولا عن تحويل عينيها عنه، اقتربت من سيمون، قالت بصوت يملؤه الوجل)

ماتريونا: أرايت؟ أرأيت؟!

سيمون: رأيت ماذا يا أمي؟

ماتريونا: عندما ناولته الكوب.. نظر إليَّ وابتسم، ابتسامته عجيبة.. أقسم أني لم أرَ مثل تلك الابتسامة أبدًا، كأنما الشمس أشرقت من عينيه حين ابتسم!! سيمون، إني خائفة، هنالك شئٌ غريبُ.

سيمون: غريب أم قريب.. لن ندعَه يموت جوعًا.. إعطه شيئا من الخبز؟

ماتريونا: إعطه أنت.

سيمون: تفضل يا صديقي، العين بصيرة واليد قصيرة، كُل.

(أعطاه سيمون الخبز..أخذ الغريب كسرةالخبزوجلس في هدوء، نظرا إليه قليلا وهو يأكل ببطء)

ماتريونا: والآن.. كانت هذه آخر كسرة خبز بالكوخ، ربما تحتاج لشئٍ تأكله أنت أيضًا، بإمكاني اقتراض شئ من جارتنا مارثا.. سأمر من أمامه الآن.. اصحبني.. صرت أخاف من كل شئ فجأة.. أخاف الخروج، أخاف مجرد المرور أمامه؛ لعل هذا الغريب ألقى عليَّ لعنة.. سيمون.. لعله إن بقي وحده قليلا يكون بخير، تعال معي يا أبي.

(سيمون يصحبها نحو الباب)

سيمون: من الأفضل أن نأخذَ الشمعة معنا.

ماتريونا: أنت خائف أيضا؟

سيمون: أنا؟ أخاف! لا، أنا أعرف كل خطوة في الطريق، هاتِ يديكِ.

(خرجا معًا، مازال الغريب ساكنًا على المقعد، ومن داخل الحجرة يُسمع صوت الطفلة تنادي:)

أنوكشا: أمي .. أمي، أبي.. أبي.

تخرج من الغرفة مرتدية قميصًا أبيضَ رقيقًا، تلمح الغريب.. تتجه نحوه ببطء.. يرفع رأسه نحوها.. تتطلع إليه بشغف رقيق جسور.. تتقبله وتمنحه يديها، يرفعها إلى حجره في رقة ووداعة، تسند رأسها بهدوء على كتفيه.

الفصل الثاني

يضئُ المسرحُ بعد لحظات.

نفس المشهد السابق. تطورٌ ظاهرٌ في الكوخ. مرعامٌ كامل. سيمون يعمل في إصلاح حذاء وماتريونا تخيط ثوبًا. كل واحد منهما يرتدي معطفًا جديدا.

ماتريونا: سيمون.

سيمون: نعم يا أمي.

ماتريونا: أتعرف في أي يومٍ نحن؟

سيمون: أي يوم؟! لا أعرف، هل تعرفين أنت؟

ماتريونا: لقد مرعامٌ كاملٌ منذ أحضرت ميشيل إلى بيتنا.

سيمون: هذا يومُ سعدنا، يومُ الخير والبركة!! لم أجد شخصًا في مثل هذه السرعة والاستعداد للتعلم بهذه السهولة أبدًا، والآن.. في ظرف عامٍ واحد، لا يوجد على سطح هذه البسيطة من هو أمهر منه ولا أدق صنعة؛ إنه أبرع من رأيت في تقشير الجلود وكحتها وطمرها وسمطها وغسلها وتنعيمها ودبغها.

ماتريونا: ألست أنت الذي علمته كلَ هذا.

سيمون: لا أكذبك يا أمي، كنت أفتح الباب فقط فأجده كأنما يعرف كل طريق. الناس تأتينا من كل مكان لتفصيل أحذيتهم وخصفها ورتقها، نِعالُ الموتى لم يعد لها صانعٌ سوانا.. قريبا جدًا سنكون من أعيان هذ القرية يا مليكتي.

ماتريونا: الأعجب أنه منذ هذا اليوم إلى الآن يزداد غموضا، أين هو الآن؟

سيمون: لقد ذهب بحذاء إلى جارلنا قريب.

ماتريونا: من النادر أن ترى طاولته خالية؛ إنه يعمل بلا توقف، صامتا أبدا، إنه عجيب، لا يتكلم إلا للضرورة القصوى، لا يمزح ولا يصخب، وغير تلك المرة.. تلك المرة.. لم أرَ ابتسامته أبدًا.. أتعرف يا سيمون، يا بابا، دائما أشعر أن شيئا ما سيحدث وأننا سنفقده يومًا.

سيمون: فأل الله خيرٌ من فألك.. إنه كنزنا، لن نجد عاملا مثله أبدا، لا أتصور أن نفقده.

(الباب يُفتح ويدخل ميشيل في ملابس فلاحٍ متسقة. يومئ محييا برأسه ثم يتجه إلى بنك التفصيل الخاص به ويبدأ العمل في صمت. يعملون جميعا في صمتٍ للحظات إلى أن يسمعون رنين حافلة ذات زلاجة يجرها حصانان أشهبان. تذهب ماتريونا فورا نحو الباب)

ماتريونا: يالها من مركبة! ويالهما من جَوادين! وخدم وحشم! لابد أنها لنبيلٍ عظيم، إنها تتوقف قُرب حانوتنا، الخدم يترجلون عنها.. النبيل يخرج، يالفخامته!! إنه يتجه نحونا (تغلق الباب هالعةً) سيمون.. أحد النبلاء قادمٌ نحونا.. لا وجهة أخرى سوانا!!

(سيمون يقف وكلاهما ينتظران، ميشيل مازال يعمل دونما اهتمام بالأمر، يسمعون طرقَ دقات متغطرسة على الباب، ماتريونا تفتح الباب وجلةً، يدلف نبيل فخيم الزي متكبر.)

النبيل: هل أنت الإسكافي صاحبُ هذا المكان؟

سيمون: لا يا سيدي، هذه هي صاحبه (يشير إلى ماتريونا)

ماتريونا: لست سوى زوجته يا سيدي، وأعمل بالحياكة.

النبيل: من صاحب المكان، أريده في عمل.

(الاثنان ينطقان معا): أنا يا سيدي.

(يتجه النبيل نحو الباب وينادي خادمَه)

النبيل: فيدكا، إليّ بالجلد.

(الخادم يأتي مسرعا ببسطة من الجلد الفاخر، يستأنف النبيل)

: أعطنيه.. تعال أيها الإسكافي، هل ترى هذا الجلد؟ هل رأيت مثله قبلا؟

سيمون: إنه جلدٌ فاخرٌ يا سيدي!

النبيل: هو فاخر بالفعل، ولكن لم هو فاخر أيها الأحمق؟ أنت لم ترمثله في حياتك من قبل، أليس كذلك؟ إنه مستورد، ليس محلي الصنع، إنه جلد أناكوندا، لقد كلفني اثنا عشر روبلا.

سيمون: اثنا عشر روبلا!! وكيف لي أن أرى جلدًا من هذا النوع يا سيدي؟

النبيل: اتفقنا إذن أنك أحمق وأنه فاخر.. إليك سؤالٌ وأريدك أن تفكر جيدا قبل أن تجيبه.. لا تعبث بعمرك، ها.. أتستطيع أن تفصل لي نعلًا من هذا الجلد؟

سيمون: نعم يا سيدي (يزدرد ريقه) أستطيع.

النبيل: تستطيع؟ تستطيع.. حسنًا جدًا.. تذكر دائما لمن ستصنع هذا الحذاء وأي نوعٍ هو.. ها. أريد حذاءً أرتديه لمدة عام، بغير أن يفقد بريقه ولا يفقد مظهره.. أريده شامخًا وخالدًا لا تنفك منه غرزةً واحدة، أسمعت؟

سيمون: سمعت يا سيدي.. سمعت.

النبيل: حسنًا، إن كنت قد وعيت كلامي فمن الأفضل أن تفكر جيدا، أتستطيع أم لا؟ إذا لم تكن قادرًا فمن الأفضل أن تقول ذلك الآن. فإما أن تبدأ به على الفور وأما أعود من حيث أتيت.

(ماتريونا تحاول أن تغمز له ليتركه يعود من حيث أتى، لكن سيمون يشعر بالخوف إن رفض)

سيمون: أستطيع يا سيدي.. أستطيع.

النبيل: لو أفسدت الجلد سأضعك في السجن بقية عمرك.

سيمون: سيدي.. أستطيع.. أستطيع.

النبيل: لكنك لو أحسنت صنعه فسأعطيك عشرة روبلات كاملة.

سيمون: عشرة روبلات.

النبيل: عشرة روبلات.

سيمون: حسنًا يا سيدي.. سأصنعه لك.

النبيل: خذْ مقاسَ قدميَّ إذًا.

(النبيلُ يجلسُ ويمد قدميه في بطء متعجرف، يتوجه الخادم نحو قدميه ويبدأ في خلع أحد نعليه. سيمون يبدأ في القياس)

النبيل: تذكر.. لا أريده ضيقًا ولا واسعًا، أريده مُحكمًا.. لا تقل لي حينها سيتسع مع المشي.. البوزُ بخير، العرض سينبسط.. أعرف هذه الألاعيب.. أريده رائعًا منذ اللحظة الأولى، أنت لا تعرف في أي مناسبة سأرتديه، إنه حفل تتويجي.. لا عليك بفهم هذا، هذه أمورٌ لا يعرفها أمثالُك. تذكر فقط أن السجنَ موحِش.

سيمون: سيكون مناسبًا تمامًا يا سيدي.

(تدخل أنوكشا.. تلعب وتقفز وتصيح غير منتبهة للنبيل)

(ماتريونا تخشى أن يزعج هذا الضجيج النبيل فتنهرها)

: أنوكشا!

(أنوكشا تنزعج حين ترى النبيل فتدفن رأسها في ثوب أمها الواقفة مضطربة)

النبيل: أهذه ابنتُك؟

سيمون: نعم سيدي.

(أتم سيمونُ أخذَ القياس فوقف النبيل قائلًا)

: انتهينا، أذكرك.. لا أريد أن يفسد جلدي، هذا لصالحك أنت، (يلحظ ميشيل قابعًا في مكانه بغير أن ينظر إليه منذ دخل) وماذا لدينا هنا أيضا؟ أهذا عاملُك؟

سيمون: نعم يا سيدي.

النبيل: أسيعملُ هذا أيضًا في الحذاء؟

سيمون: نعم يا سيدي، لا تقلق، إنه ماهرٌ جدًا.

النبيل: لست أنا الذي ينبغي عليه أن يقلق؛ أستطيع أن أشتري جلدًا غيرَه، لكن هذه الصغيرة لن تجدَ أبًا آخرَ، أفهمت؟ (يتجه نحو ميشيل) لا أريده أن يفقد مظهره وبهاءه طوال عام، ولا تنفك غرزة واحدة منه، أفهمت؟

(ميشيل يقف مواجهًا النبيلَ ببطء، ظهره للمسرح، يحملق في النبيل صامتا، يصمت النبيل، ماتريونا تجذب سيمون من عضده)

ماتريونا: سيمون أنظر إلى ميشيل.. أنظر إلى وجهه.. إنه يبتسم.

سيمون (من بين أسنانه): عليه العوض ومنه العوض.

ماتريونا:... تماما كما ابتسم لي منذ عام.

النبيل (مرتبكًا يشعر باضطراب بلا تفسير)

: فيم تحملق أيها المعتوه؟ توقف، توقف عن هذه النظرة،

(يقترب النبيل من ميشيل مهددًا ومتوعدًا لكن ميشيل لا يتحرك قيد أنملة ولا يتوقف عن النظر إليه وعلى جانب فمه ابتسامة، يتردد النبيل فجأة، تتباطأ خطواته حتى تقف. وجلًا يتجه نحو الباب خارجًا وهو يصيح)

النبيل: بدلا من هذه الوقفة وهذه الابتسامة البلهاء أنصحك أن تحسن صنع حذائي وإلا سجنتكم جميعا.. سأسجنك أنت أيضًا أيها الأبله.. يا فيديكا، هيا بنا.

(يخرج النبيلُ وخادمُه، يظل ميشيل واقفا بلا حراك، سيمون وماتريونا يراقبانه مسحورين)

(يتجه سيمون نحو الطاولة ويلتقط الجلدَ الفاخرَ)

: يالـه من جلد! احذروأنت تقصه يا ميشيل، اعتنِ به جيدا وأنت تصنع الحذاء.. لو فسد هذا الجلد لرُحنا جميعًا في خبركان.

(يناوله الجلد بمنتهى الحرص والحذر)

: والآن انتظر حتى أُعطيّك القياس أيضا (يتوجه لجلب القياس) عيناك أصدق من عينيّ، وأنت أمهرُمني في الحقيقة، لكنني هذه المرة أريدك أن تكون أكثرمهارة من أي مرة سابقة.

(ولكن قبل أن يعود بالقياس يطوي ميشيل الجلد بشكل عشوائي ثم يقطعه مفسدًا إياه تمامًا)

سيمون (في رثاء): ميشيل، ماذا فعلت؟ بحقِ الله ماذا فعلت؟

(ميشيل لا يجيبه، يمزق الجلد مراتٍ أُخرويحتفظ في يديه بمُزقَتين ويطرح الباقي أرضا) يستأنف سيمون نائحًا

: لقد مزقت الجلد يا ميشيل.. رحنا في ستين داهية.. لماذا؟ كيف؟ لقد ضيعتَنا جميعا، ماتريونا، أنوكشا، صغيرتي البريئة.. تعاليا أنظرا ماذا فعل ميشيل.. كيف سنواجه غضبةَ النبيل؟ ماذا فعلت بك يا ميشيل لتحطمني هكذا؟ لم ترتكب خطأً واحدًا منذ عرفتك والآن تدمركل شئ!

(يفحص الجلد الذي ألقاه ميشيل)

: يا أمي، يا ماتريونا، أيتها السعيدة بابتسامة ميشيل! أنظرْ إنه يبتسم، ها قد بكينا باقي عمرنا يا أمي.. لا يمكن صنع حذاء من هذه الرقع أبدا.. اللهم إلا نَعلَي موتَى.

(فيديكا، خادم النبيل يعود مندفعا إلى الكوخ، يبدو منفعلا جدا، سيمون وماتريونا ينظران إليه كالأصنام، يستجمع الخادم أنفاسه للحظة)

فيديكا: لقد عدت من أجل حذاء سيدي.

سيمون: حذاء سيدك؟! اصبر يا أخينا، أتظنه انتهى في غمضة عين؟

فيديكا: ليس الحذاء هو الذي انتهى، بل سيدي النبيل؛ لم يعد في حاجة إليه.

سيمون: ماذا تقول؟ أفصح، أبن.

فيديكا: لقد مات سيدي، ما أن لحق بسيدتي النبيلة في الحافلة وأعملنا السياط على ظهور الخيل حتى سمعنا السيدة تصرخ صرخة عظيمة فتوقف الركب، ذهبنا ننظر ما الذي حدث فوجدناه ميتًا بلا حراك.. فتحنا الباب فانقلب من الحافلة ثم تدحرج على الأرض كالشوال.

سيمون: كالشوال؟

فيديكا: كالشوال؛ أرسلتني السيدة لأطلب منك أن تصنع بدلا من الحذاء نعلي موتى.

سيمون: أتقصد نعلي موتى؟

فيديكا: نعم.. نعلين للجثة.

سيمون (ببطء): نعلان للجثة؟

فيديكا (متأثرا): نعم، سأعود لآخذهما غدا صباحًا.

(يخرج فيديكا)

سيمون (كالذاهل): نعلان للجثة!!

(يتوجه نظر سيمون وماتريونا نحو ميشيل ذاهلين. ميشيل يجلس إلى طاولته صامتًا، بدأ في صنع النعلين من المزقتين اللتين بقيتا في يديه.. ويظلم المسرح)

الفصل الثالث

يُضاء المسرح على مشهدٍ مزدحمٍ داخل الكوخ، الوقت قرب الغروب، ميشيل وسيمون يعملان، أنوكشا تملأ الأرضية بالألعاب – عدد كبير من العرائس الخشبية الملونة – باتريونا تروح وتجئ مشغولة بأعمال التنظيف والمنزل بعد يوم عمل صاخب.

نقرة خجلى على الباب؛ تتوقف الحركة داخل المنزل، النقر يُعادُ بصوتٍ أعلى قليلا.

سيمون: أليس الوقت متأخرًا لاستقبال زبائن!

باتريونا: أنظري من بالباب يا أنوكشا.

(أنوكشا تفتح الباب ثم تختفي بالخارج قليلا لأن الطارق ابتعد عن الباب قليلا. تعود ثانية بعد لحظة)

أنوكشا: إنها سيدة وابنتان صغيرتان، لإحداهن قدمٌ شائهةٌ.

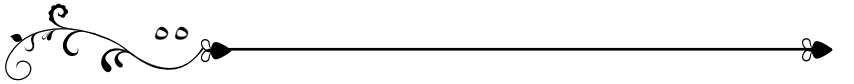

(ينتبه ميشيل على غير عادته، هب واقفًا حين سمع كلمات أنوكشا، دخلت سيدة وطفلتان (عمرهما عامان)، إحداهن عرجاء القدم.. بدا على وجهه – للمرة الأولى – تأثرًا شديدًا).

المرأة: أسعد الله مساءكم أيها الطيبون.

سيمون: أسعد الله مساءك يا أختاه.

المرأة: جئتكم لتفصيلَ أحذية لصغيرتي هاتين.

سيمون: نحن في خدمتك وخدمة الجميلتين أيتها الأم الرءوم، ما نوع الحذاء الذي تريدين وشكله؟

المرأة: أريده للربيع، ذلك النوعُ اللطيف الذي يناسب الربيع.

سيمون: يمكننا صنع كل ما تتصورين من أحذية: مقلوبًا، أملس، ناعمًا مدبوغًا أو حتى مبطنًا، محيطًا بالكفين أو حرَ الإطار. هذا عاملي ميشيل، أمهر إسكافي في العالم، سيجعل كل أحلامك حقيقة.

(كان ميشيل حتى هذه اللحظة مشدوه النظر إلى الطفلتين، انتبه حين سمع الكلمات الأخيرة فتقوقع إلى نفسه، وعاد إلى منطقةِ الظل في المسرح)

المرأة (لميشيل): هلا تفضلت بأخذ مقاس طفلتي سيد ميشيل؟

(ميشيل لا يجيب، تبرق عيناه ويسكن مشدوهًا وجلًا.. مرتبكًا بلا تفسيرٍ واضحٍ لسيمون)

سيمون: نعم.. بالطبع (يتوجه هو لأخذ القياس)

(ترفع السيدة الطفلة عليلةَ القدمِ إلى حجرها بحنان)

المرأة: أريدك حين تأخذ مقاسَ قدمي ملاكي هذا، أن تصنع ثلاثة فرد للقدم السليمة وفردة واحدة لهذه القدم المعطوبة، وزوجين كاملين للطفلة الأخرى، يمكنك تفصيلَهما على نفسِ القياس، أنهما توأمان.

(يبدأ سيمون في أخذ القياس بينما يحدث المرأة مشفقًا على الطفلة)

سيمون: كيف حدث هذا لهذا الملاك الصغير؟ لا يبدو أنها ولدت هكذا؛ فأنا أعرف هذه الإصابات.

المرأة: نعم، لقد أعطبت أمها قدمها.

سيمون: ألستِ أمها؟

المرأة: لا، أنا لست أمًا لأيتهما، بل ولا تربطني بهما أي علاقة دم، إنهما غريبتان عني تمامًا لكنني تبنيتهما.

(تدخل ماتريونا في الحديث)

باتريونا: ليستا ابنتيك؟ يبدو من عشقك لهما غير ذلك. إنك امرأة رءوم.

المرأة: كأنما زرع الله حبهما في قلبي كما تحمل الأم صغارها أجنةً. لقد أطعمتهما من ثدي واحتواهما حضني مع ابني؛ كان لي ابنٌ أيضًا لكنه مات، لم أتعلق به تعلقي بهما.

باتريونا: أين أبواهما إذن؟

(أثناء الحديث كانت أنوكشا قد عقدت صداقة مع الطفلة الأخرى وأخذتها حيث كانت تلعب بألعابها الخشبية الملونة، وبمجرد أن انتهى قياس قدم الطفلة العرجاء انضمت إليهما. على الأرض جلسن يلعبن جميعهن)

(تخفت إضاءة المكان تماما، ليس إلا الضوء الواهن المنبعث من شمعة تتوسط الغرفة، كل الظلال حولها باهتة لا تبين خلالها ملامح الجالسين، ميشيل يختفي تمامًا في ركن الكوخ)

المرأة: مات أبواهما في أسبوعٍ واحد، كنت أعيش مع زوجي بنفس القرية. كان أبوهما حطابًا صالحا، كان وحده في الغابة حين سقطت فوق رأسه شجرة فهشمتها تماما. وضعت زوجته الطفلتين بعد موته بيومين، كانت فقيرة وحيدة، لم يكن لديها من يعتني بها ولا بالطفلتين.. وحيدة حين منحتهما الحياة ووحيدة حين غادرت الحياة، لم يكن هناك سوى الوحدة. ذهبْتُ إليها في الصباح، كانت جثتها قد تيبست تماما، يبدو أنها حاولت أن تلقم ثديها إحدى الطفلتين في الرمق الأخير فجثت بنصفها الأسفل فوقها فهشمت كف قدمها الرقيق وكادت أن تودي بأنفاسها. في ذلك اليوم أقبل رجال القرية ونساؤها فحملوا الجسد وغسلوه وكفنوه ومنحوا الأم دفنا لائقا ثم احتار الجميع فيما يفعلون بالطفلتين.. طالبوني برعايتهن مع ابني حديث الولادة أيضا، تكفلت النساء بالطعام ومؤونة بيتي بينما أغدق الرجال عليّ مالا وعطايا. سخر الله لها قلوب أهل القرية ثم سخر قلبي للطفلتين.. كنت الأم الوحيدة التي ولَدَت في نفس الأثناء. أرضَعتُهما مع ولدي، ولحكمة لا يعلمها إلا الرب حرمني ولدي وأبقى هاتين.. مات حين أوشكوا جميعًا على إتمام

العامين، لم يكن لدي أولاد آخرين.. أية وحدة كنت لأشعر بها لو لم يهبني الإله هاتين الجميلتين! إنهما بهجةُ حياتي ومعنى وجودي (وقفت ثم اتجهت لرؤية الأطفال) وما أجمل الطفلة التي لديكم أيضا، ما اسمها؟

ماتروينا: أنوكشا

المرأة: لقد تآلفن بسرعة مذهلة، قلوب الأطفال أسرعُ صحبةً لأنها أشدُ نقاءً، هيا يا صغيرتي، لابد أن نعودَ قبل أن يكثف الظلام.

ماتريونا: أنت لست من هذه الأنحاء، أليس كذلك؟

المرأة: أنا من قرية قريبة متاخمة، أتيتكم من أجل الأحذية، كم سيستغرق صنعهم؟

سيمون: يومين فقط.

باتريونا: المكان مظلم بالخارج، أتعرفينَ الطريق؟

المرأة: فقط لو وضعني أحدٌ على أولِه.

باتريونا: سيمون، أرشدها للطريق، سلامًا أيتها الرقيقتان، تعالىّ بعد يومين والعبا مع أنوكشا مرة أخرى.

أنوكشا: أيمكنني أن أصحَبهما إلى الخارج يا أبي؟

(تأخذ باتريونا الشمعة من على الطاولة وتتبعهم نحو الباب، ترفع الشمعة فوق رأسها لتنير أكبرَ قدر ممكن من الطريق، تلوح لهم وهم راحلون، ثم تختفي هي أيضا بالشمعة في الخارج، يظلم المكان تماما، ثم، من الركن الذي يجلس فيه ميشيل، يبزغ ضوء غريب لافت.. يسطع الضوء شيئا فشيئا حتى يكشف الضوء ميشيل تماما في منتصف الكوخ)

(تعود ماتريونا بالشمعة نحو الطاولة، ظهرها لميشيل، ثم تلف لتجد ميشيل أمامها فتدهش في إجلال لمرآه وتنادي)

: سيمون سيمون سيمون.

(يقبل سيمون وخلفه أنوكشا)

سيمون (يرى ميشيل): أوه!! يا إلهي، اللهم عفوك.

ماتريونا: أنظر إلى ابتسامته هذه المرة، لا أستطيع تحمل نظرته هذه المرة.

سيمون: ميشيل، رفقًا بنا، إنَّا منك وجلون، بالله أخبرنا.. كيف يسطع وجهُك هكذا؟

ميشيل: سطعَ وجهي لانقضاء عقوبتي.

سيمون: وما سر ابتسامتك هذه؟ الآن وفي المرتين السابقتين؟

ميشيل: ابتسمت ثلاثَ مرات لأنني تعلمت الأشياء الثلاثة التي أُرسلت لأعرفها.. لقد عرفتها كاملة هذا المساء. اليوم تنقضي عقوبتي، اليوم أتممت الثلاث.

سيمون: هل تفهمين شيئًا يا أمي؟

ماتريونا تهز رأسها نافية.

سيمون: هلا عاملتنا على قدر عقولنا البسيطة أيها السيد؟

ميشيل: عرفت الأولى حين أشفقت عليّ زوجتك فابتسمت. والثانية حين طلب النبيل حذاءً فابتسمت.. والآن أدركت الثالثة.

سيمون (بصوت خافت مبجل): قل لي يا ميشيل، لماذا عوقبت؟ ما جريمتك؟ ما أنت؟ وما هي هذه الحقائق الثلاث؟ أريد أن أعرفها أنا أيضًا.

ميشيل: لقد كنت ملاكا فعصيت ربي...

(يخفت الضوء حول الثلاثة الذين تكوموا أمام ميشيل- سيمون وماتريونا وأنوكشا- ضوء الشمعة الشحيح حولهم لا يذكر أمام النور الساطع حول ميشيل، تركع ماتريونا فتلحظ الفتاة ذلك فتقلدها ويستانف ميشيل

: أرسلني ربي لأقبض روح امرأة، طرت إلى الأرض مطيعًا، وجدتها سيدةً وحيدة تماما، كانت قد وضعت طفلتين توًا.. كانتا ابنتين، عندما رأتني، أدرَكَت؛ وَجَلَت شاحبة.. حدثتني راجية قائلة " يا ملاكَ الرب، أيها الروح النبيل، أشفق علي.. لقد دُفنَ زوجي منذ يومين فقط، سقطت فوق رأسه شجرة فهشمته، وهأنا الآن قد وضعت طفلتين.. لمن أتركهما! ليس هناك من يعتني بهما ويحنو عليهما وضمهما إلى صدره؛ لا يمكن أن تنموان بغير أم أو أب في هذا العالم القاسي.. أمهلني حتى أتم فطامهما.. أمهلني بحق الرحمة"

ملأتني الشفقة عليها.. عدت إلى مولاي وقلت له:

" لقد مات زوجها وجلالتُك تعلم، سقطت على رأسه شجرة وجلالتك تعلم، وضعت الأم البائسة طفلتين توا وجلالتك تعلم! الحالةُ مربكة جدا، أنت الشفيق يا مولاي، سامحني؛ لم تواتيني الشجاعة أن أقبض روحها، لم

تطعني يداي"، قال ربي "أعصيتَ أمري؟ عُد واقبض روح المرأة، إذهب إلى الأرض ولا تعد إلا بعد أن تتعلم أشياءً ثلاثة: مالذي يجعل الإنسان إنسانًا، ومالذي لا يستطيعه الإنسان وبماذا يحيا الإنسان، لن تعود إلى جناني إلا إذا أدركت هذه الدروس الثلاثة"

أُهبطت بعدها إلى الأرض، توجهت إلى السيدة مرة أخرى، كانت ترضع إحدى ابنتيها، كان وجيبُ قلبي عاليًا، لم أكن قادرًا على مواجهة عينيها ولم أمنحها الفرصة كي تراني، قبضت روحها وما زال ثديُها في فم الطفلة، ارتخت أقدامُها فوق نصف الطفلة الأسفل كما سقطت الشجرة على رأس أبيها. حاولت بعد قبضها أن أحلقَ عائدا بروحها فلم أقوَ، سقطت منكبًا بلا عزيمةٍ، تيبس جناحاي فجأة ثم شعرت بهما يذويان ويسقطان، صعدت روحُها بمفردها بينما انكببت أنا ركن زاوٍ بجوار ضريح.. رجيمًا على عهد السماوة أندم[١].

---

[١] العقاد

لم أعان احتياجات البشر قبل ذلك، شعرت بالجوع فجأة، شعرت بالبرد والضياع والألم، ثم شعرت بقدوم بشري نحوي (ينصت سيمون باهتمام أشد ورهبة) كانت المرة الأولى التي أرى فيها وجهًا فانيًا ونحن مشتركان في الصفات.. عندما رآني اكفهر وجهه عابسًا، نفرَ مني تمامًا، بدا لي حينها فظيعًا، تخطاني عابرًا إلى الجهة الأخرى.. كنت عاريا وجائعا وفارغا.. عندما تخطاني شممت رائحةَ الموت ورأيت في وجهه الفناء (رأس سيمون تغرق بين كتفيه وينزوي جسده)، لكنه ابتعث حيًا مشرقًا حين عاد. سمعت صوت أقدامه عائدًا بعد ذلك ببرهة. وحين عاد، رأيت في وجههِ روح الرب وحضوره (سيمون يرفع رأسه مرة أخرى). أخذني إلى بيته بعد أن ألقى عليّ محبته ودثرني بعباءته.. امرأة كانت هناك (ماتريونا الراكعة تنخفض زاوية في الأرض أكثر)، كانت أشد فظاظةً من الرجل حين التقيته، كانت رائحة الموت تجول في روحها أكثر، لم أستطع أن أتنفس من بشاعة رائحتها؛ الموت في الكراهية، أرادت أن ترميني في الصقيع بالخارج، كنت أعرف إنها إن فعلت ذلك فسوف تموت فورا (صرخة خافتة تنبو من ماتريونا) لكنها عادت فجأة فاطعمتني

وأدفأتني، لم تعد رائحة الموت تملأها؛ أشرقت بالحياة.. وفي وجهها أيضا رأيت نور الرب ساطعًا.. عندها أدركت درسي الأول: بماذا يعيش الإنسان وماذا يسكنه.. إنها المحبة التي تجعله إنسانًا. الإيثاريُرقيه عن باقي المخلوقات، حتى من بني جنسه.

عامٌ مضى، وأقبل رجل يريد أن يصنع حذاءً يعيش عامًا كاملًا، خلفه رأيت رفيقي القديم، ملاكَ قبض الأرواح، كنت أعرف أنه سيقبض روحه قبل مغيب الشمس.. رغم ذلك كان يملؤه الأمل وتغريه صحته بحذاء لا يبلى ولا تنفصم منه عروة؛ ابتسمت حينها؛ لأنني عرفت ما الذي لا يستطيعه الإنسان وما لم يفهمه حتى عن نفسه: إنه لا يعرف احتياجاته الحقيقية.. إنه يرجو حذاءً وقابض الأرواح خلف كتفيه، كان على استعداد لحبس إنسانٍ وتشريد أسرةٍ من أجل حذاء. لم تكن ابتسامتي تحديا له ولا لموته، بل لأنني أدركت درسي الثاني.

ومر عامٌ ثان وجاءت الطفلةُ والسيدةُ.. الطفلتان والسيدة.. لقد شقَّا طريقَهما في الحياةِ بعناية خفية جلية في نفس الوقت، لقد كفلهما الربُ

نفسَه من خلال هذه السيدة.. تلك التي يسكنها الحب. الأسباب التي كنت أراها لم تكن سوى ظواهر.. يمكن لبارئ الحياة أن يستبدل بها أسبابًا أخرى بغير جهد.. مات أبواهما لكنهما لم يشعرا بالفقد.. أتدرون لماذا!! لأن الرب دائما هناك.. هنا.. في كل مكان.. حب هذه السيدة أحياهما.. لقد بقَيت حيًا، عندما صرت بشرًا سويًا، لا بعنايتي وكسبي، بل بفضل رجلٍ عابرٍ لم يكترث لنفسه فقط، اشتملني ببُردته وأطعمني وهو الجائع المحتاج. الطفلتان عاشتا، لا لأن أمهما حولهما، بل بالحب في قلب تلك السيدة.. تلك الغريبة عنهما لكنها مليئة بنفحة الرب.. بروح الرب.. الناس يعتقدون أنهم يحيون ويرتقون بفضل عنايتهم بأنفسهم، لكن الحقيقة أن الحب هو الذي يمنحهم حياةً حقيقيةً.. يستطيع الحرص أن يمنحك أعوامًا وأملاكًا وجاهًا.. لكنه لن يمنحك حياة حقيقية كتلك التي يمنحها الحب؛ حينها فقط أدركت درسي الثالث، وهكذا انقضَت عقوبتي.

(فجأة يملأ الظلامُ المكانَ، ثم يعود الضوء مرة أخرى من خلال ضوء الشمعة الباهت.. وليس بالحجرة حينها سوى سيمون وماتريونا وأنوكشا، لا وجود على المسرح لميشيل)

باتريونا: لقد فقدنا كنزنا يا سيمون.

سيمون: بل وجدناه يا أمي.

ستائر

: